منهج الخطاب القرآني في الحديث عن النصرانية وآثار المنهج القرآني

رحمة بنت أحمد الحاج عثمان* وسيكو توري**

ملخص البحث:

خلص البحث بأن للقرآن أسلوبه الخاص ومنهجه الفريد في دراسة النصرانية، وهو الموضوعية والسعي وراء الحقيقة بالأدلة والحجج العقلية كقاسم مشترك بين البشر من خلال الفطرة والعقل. وإن المنهج القرآني ترك أثرا واضحا في اتباعه المناهج التي عرض النصرانية باتباعها.

الكلمات المفتاحية: الخطاب القرآني، النصرانية، المنهج القرآني، آثار المنهج القرآني، الموضوعية.

Abstract

The research found that the Quran has its own style and unique approach in studying Christianity; and it is objectivity and the pursuit of the truth by using rational evidences and arguments, as a common denominator among people because of their inborn nature and reasoning. The Quranic approach left a clear impact on the methods of Muslims in approaching Christianity.

Key words: Quranic Discourse, Christianity, Qur'anic Approach, Effects of the Qur'anic Approach, Objectivity.

Abstrak

Kajian ini menemui bahawa al-Quran mempunyai gaya pendekatan yang tersendiri dan unik dalam mengkaji agama Kristian; dan objektiviti dan mengejar kebenaran dengan menggunakan bukti dan hujah yang rasional sebagai denominator yang lazim di kalangan orang kerana sifat semula jadi mereka dan penaakulannya. Pendekatan al-Quran meninggalkan kesan yang jelas mengenai kaedah-kaedah umat Islam dalam usaha mendekati agama Kristian.

Kata Kunci: Wacana al-Quran, Agama Kristian, Pendekatan al-Quran, Kesan Pendekatan al-Quran, Objektiviti.

---

* الأستاذ المشارك بقسم اللغة العربية وآدابها، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا.

** طالب دكتوراه في قسم أصول الدين ومقارنة الأديان.

المقدمة

تهدف هذه الورقة إلى دراسة أسلوب القرآن وطريقته في معرض حديثه عن النصرانية، يأتي هذا البحث انطلاقا من تسليم القول في أن القرآن تحدث عن النصرانية؛ بل وقد ذكر عنها ما لم يُذكر في أي مصدر آخر، ولعل من المسلم به القول في أهمية تتبع الخطاب القرآني في دراسة النصرانية وغيرها من الأديان، وأولوية دراسة المنهج القرآني في ذلك، ويأتي تبعا لذلك بيان آثار المنهج القرآني في حديثه عن النصرانية.

تعريف المنهج

يستحسن بنا أن نعرّف معنى المنهج لغة واصطلاحًا، ومن ثم نخوض في تحليل منهج الرازي في دراسة النصرانية، سيبدأ الباحث بالتعريف اللغوي أولا، لِيليه التعريف الاصطلاحي ثانيا.

- **مفهوم المنهج لغة:**

يطلق لفظ – منهج – ويراد به عدة معان متشابهة، فقد يراد به الطريق أو الطريقة، بل وقد يصاحب اللفظ صفة تفيد المدح؛ فنقول المنهج هو الطريق الواضح والطريقة الواضحة، أو الطريق المستقيم والطريقة المستقيمة، فقولنا واضح ومستقيم صفتان وصف بهما الطريق، ليفيدنا معنى أكثر من مجرد الطريق. جاء في لسان العرب: "المنهج: هو الطريق البيِّن الواضح، ويطلق على الطريق المستقيم"[1].

---

[1] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب** (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت)، ج2، ص383، مادة نهج. الفيروز آبادي، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط** (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 1999م)، ج1، ص209، مادة نهج.

كما قد يراد بلفظ – منهج – المسلك والسبيل والسنة، وهذه المعاني قد تكون من مترادفات الطريق؛ لذلك يفسر معظم العلماء قوله تعالى الذي ورد فيه لفظ منهج: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ [المائدة:48]. بمعنى السبل والمسلك والسنة، يقول أبو جعفر النحاس صاحب معاني القرآن: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً﴾ قال ابن عباس سبيلا وسنة"[2]. يقول صاحب منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام: " فالمنهاج: السبيل أي الطريق الواضح، والشرعة والشريعة بمعنى واحد، وشرّع: سنَّ[3].

ومن أجل هذا لم تخرج دلالة الأحاديث التي تحمل لفظ – منهج – خارج إطار ما ذكر الباحث من معان، فمثلا لو نظرنا إلى حديث: «تكون النبوة فيكم ما شاء الله أن تكون، ثم يرفعها الله إذا شاء أن يرفعها، ثم تكون خلافة على منهاج النبوة»[4]، فاستخدم النبي ﷺ كلمة "منهاج" بمعنى طريقة وطريق ومسلك وسبيل، يقول حلمي عبد المنعم أيضا: "أي يسلك الخلفاء مسالك النبي ﷺ، وينتهجون نهجه، ويسيرون على طريقته"[5].

فجملة ما يذكر في بيان معنى المنهج لغة، هو أن العرب استخدمته بمعنى الطريق ومترادفاته، وقد تضفى صفة الاستقامة أو الوضوح عليه.

---

[2] النحاس، أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المصري، **معاني القرآن** (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ط1، 14091هـ)، ج2، ص318.

[3] صابر، حلمي عبد المنعم، **منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام**، كتاب دعوة الحق، العدد 183، السنة 16، 1418هـ (مكة المكرمة: رابطة العالم الإسلامي)، ص14.

[4] أخرجه أحمد في **المسند**، ج4، ص273، رقم18430 وحسنه محققه. وانظر: ابن رجب، أبو الفرج عبد الحمن بن أحمد الحنبلي، **جامع العلوم والحكم** (بيروت: در المعرفة، ط1، 1408م)، ص264.

[5] صابر، **منهجية البحث العلمي وضوابطه في الإسلام**، ص14.

- **معنى المنهج اصطلاحا:**

كان للمعنى اللغوي لكلمة منهج تأثير في معناه واستخداماته في الاصطلاح، حيث يستخدم المنهج في الاصطلاح، ويراد به الطريقة التي سار عليها باحث معين في بحثه، ولقد تباينت تعريفات العلماء لمصطلح "المنهج" لكن في الحقيقة يمكن القول بأن الاختلاف لفظي ليس إلا، وسأورد عدة تعريفات مختلفة في التعبير، لكن متفقة غالبا في المعنى، ومن هذه التعريفات ما يأتي:

1. تعريف عبد المنعم الخفي في المعجم الفلسفي، حيث عرف المنهج بقوله: "مجموع الإجراءات التي ينبغي اتخاذها بترتيب معين لبلوغ هدف معين".[6]

2. عرفه مجمع اللغة العربية بالقاهرة بـــ: "يعتبر وسيلة محددة توصل إلى غاية معينة"[7].

3. وعرفه عبد الرحمن بدوي بقوله: "فن التنظيم الصحيح لسلسلة من الأفكار العديدة، إما من أجل الكشف عن الحقيقة حين نكون به جاهلين، أو من أجل البرهنة عليها للآخرين حين نكون بها عارفين"[8]. وهذا ما يميل الباحث إليه إن كان لا بد من اختيار تعريفا وترجيحه، وذلك لأن هذا التعريف قد يكون جامعا ومانعا وأكثر دقة من الآخرين، وما قد يرد عليه من إشكالات قد يكون أقل من غيره من التعريفات، وهو تعريف معاصر، يضع في الحسبان ما قد يطرأ في الأفهام حين يقول أحدنا "منهج"[9].

---

[6] الحفني، عبد المنعم، **المعجم الفلسفي** (بيروت: دار ابن زيدون، ط1، 1992م)، ص286.

[7] مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي** (القاهرة: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، د ط، 1399هـ/1979م)، ص195.

[8] بدوي، عبد الرحمن، **مناهج البحث العلمي** (الكويت: وكالة المطبوعات بالكويت، ط3، 1977م)، ص3.

370. المصدر السابق: ص195.

وعلى هذا فمنهج القرآن في دراسة النصرانية، يعني طريقته والأسلوب العلمي، والسبيل الفني الذي تبعه وهو يتحدث عن النصرانية، ومن الجدير بالذكر أن لكل علم منهجه الخاص، هو موضع اتفاق بين أهل فن معين، يسير وفق قواعده وضوابطه.

وعلم مقارنة الأديان واحد من ضمن العلوم التي امتازت بمنهجية معينة، فقد سلك العلماء في دراسة الأديان مناهج وطرقا وفنونا مختلفة، كُتب فيها تحت عنوان "مناهج علماء المسلمين في دراسة الأديان"، ليفصل الكتاب والباحثون القول فيها أحسن تفصيل، كما عني عالم بعينه للوقوف على منهجه، فدُرس مثلا منهج ابن حزم ومنهج البيروني، ومنهج القاضي عبد الجبار، وغير ذلك، ومن المعاصرين منهج أبو زهرة، ومنهج ابن تيمية، ومنهج أحمد ديدات وغير ذلك.

منهج الخطاب القرآني في تناول النصرانية

– المنهج التاريخي والوصفي[10]

ويقصد بالمنهج التاريخي الوصفي عند علماء دراسة الأديان في الفكر الإسلامي، دراسة الأديان ووصفه كما هو عند المنتسبين إليه دون الرد أو النقد والقدح في ذلك الدين. وكذا يتضمن ذكر تاريخ الدين ودراسته من الناحية التاريخية كأحداث، وذكر خصائص الدين كما هو[11].

[10] يذكر العلماء أربعة مناهج لدراسة الأديان في الفكر الإسلامي، هي: المنهج التاريخي الوصفي، والمنهج التحليلي المقارن، والمنهج النقدي الموضوعي، ومنهج الجدل والمناظرة. ويذكرون أربعة مناهج كذلك لدراسة الأديان في الفكر الغربي، هي: التاريخي الوصفي، الظاهراتي، المنهج الاجتماعي والانثربولوجي، والمنهج النفسي. للتوسع انظر: الشرقاوي، محمد عبد الله، **بحوث في مقارنة الأديان** (القاهرة: دار الفكر العربي، ط2، 2002م)، ص18-19.

[11] الشرقاوي، **بحوث في مقارنة الأديان**، ص17.

فالمنهج التاريخي والوصفي بهذا المفهوم قد سار عليه القرآن في تناوله للنصرانية، وهو منهج إسلامي، يقصد الباحث بهذا أن لعلماء المسلمين قدم سبق في اتباع هذا المنهج، فهم الذين أسسوا وقعدوا أصول هذا المنهج على وتيرة إسلامية بحتة. فقد كتب علماء المسلمين في نشأة الديانة، وأسفارها، مؤسسها، وفرقها، ومقالاتها، ومن العلماء الذين يذكرون في هذا السياق النوبختي (202هـ) في الآراء والديانات ، والمسعودي (346هـ)، والمسبحي (420هـ) درك البغية في وصف الأديان والعبادة، ويذكر هنا مؤلفات الملل والنحل للبغدادي وابن حزم والشهرستاني. وغيرهم كثير.

ولنضرب مثلا على ما قام به الشهرستاني (548هـ) كنموذج حي في بيان منهجه. يقول في مقدمة كتابه: "وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدته في كتبهم من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم دون أن أبين صحيحه من فاسده وأعين حقه من باطله وإن كان لا يخفى على الأفهام الذكية في مدارج الدلائل العقلية لمحات الحق ونفحات الباطل"[12].

والمنهج التاريخي والوصفي بهذا المفهوم يختلف نوعا ما من المنهج السائد اليوم في الغرب، والمعروف بالمنهج الظاهراتي (Phenomenological)، فيتفقان في طريقة العمل: دراسة خصائص الدين التي تسكن خلف تجلياته التاريخية، ويختلفان في أن المنهج الغربي قامت على مسلمات ومقدمات تنقض الإيمان الديني، لاعتقادهم وإيمانهم بوجهة نظرية خالصة عن الدين، انطلاقا من تسليمهم لنظرية التطور العضوي[13]، بينما المنهج الإسلامي قائم على فكرة استقلالية الدين، وجدارته بالاتباع.

---

[12] الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، **الملل والنحل** (بيروت: دار المعرفة، ط3، 1993م)، ص14.

[13] انظر: فتاح، عرفان عبد الحميد، **النصرانية نشأتها التاريخية وأصول عقائدها** (كوالالمبور: دار التجديد، ط2، 2005م)، ص20.

وعلى هذا فمن منهج القرآن في حديثه عن النصرانية المنهج التاريخي الوصفي، على معايير قرآنية لا معايير من وضع البشر. فقد رأينا كيف أن القرآن تحدث ووصف النصارى بالاسم الصريح، أو بالألقاب: أهل الكتاب، والذين آتيناهم الكتاب، وبني إسرائيل، إضافة لهذا وصف القرآن أهم معتقداهم، فلقد أفصح القرآن وأعطى معلومات عن عقيدتهم في البنوة، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30]. وبين القول في عقيدة ألوهية عيسى قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:17].

فكل عارف باللغة يفهم من خلال هذه النصوص أن من عقيدة القوم تأليه عيسى، وهذه معلومة أوردها القرآن، فلا بد من ضرورة القول بأن من منهج القرآن في الحديث عن النصرانية المنهج التاريخي الوصفي، وهذا قد حصل، ولا ينبغي تقييد القرآن، – وهو مصدر مهم في دراسة النصرانية، يجب بيان ذلك، وهو يفرض نفسه وإن لم يعترف الناس بأحقية كونه مصدرا –، بآراء بشر من الناس.

والكلام نفسه يقال في عقيدة ألوهية مريم، وعقيدة الصلب والفداء، وعقيدة التثليث، أضف إلى ذلك أن القرآن فصل القول حول عيسى عليه السلام من وجوه، بل وتحدث عن صفات النصارى وعن أحداث تاريخية ارتبط ذكره بميلاد عيسى وبرسالته؛ **فالقرآن أعطى معلومات وبيانات عن النصرانية تاريخا ووصفا**، فوجب إثبات كونه ملتزما المنهج التاريخي الوصفي.

ومن الجدير بإضافته أن يعقب الباحث بأن المنهج الوصفي والتاريخي الذي سار عليه القرآن، إنما قام به ضمن إطاره معين، وسأتكلم عن هذا تحت "**السرد الوظيفي**" فما المقصود بذلك؟

المقصود بالسرد الوظيفي أن القرآن أورد ما أورد، من إعطاء معلومات تاريخية، ووصفه للنصرانية وأسرد القول فيها وهو في هذا لم يخرج من الغاية العظمى والقضية الأم التي هي وظيفة القرآن، يعني أن القرآن له وظيفته، وهو يسير وفق هذه الوظيفة، وقد يضطر من أجل هذه الوظيفة أن يتحدث عن جزئيات معينة. لنتمعن في النقطتين التاليتين في سبيل إيضاح المسألة:

أ- وظيفة القرآن هي إثبات التوحيد، والقضاء على الظلم العظيم، يؤكد القرآن أنه أنزل لإخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، وكل الآيات التي صدرت بما يسمى بالأحرف المقطعة يريد إثبات أن هذا القرآن حق لا ريب في أنه من رب العالمين، فإذا ثبت هذا فهو لإخراج الناس من الظلمات إلى النور. يقول محمد عياش: "سخّر الإسلام جل طاقته للقضاء على هذا الظلم العظيم- الشرك -، وانتشال الناس إلى نقاء التوحيد وصفائه ... لا ريب أن الذي يتصفح القرآن فإنه يجزم أن أهم مسألة اهتم بها القرآن هي هذه المسألة- إثبات التوحيد والقضاء على الشرك-"[14].

والأدلة على أن الوظيفة الأولى للقرآن هي إثبات التوحيد ونبذ الشرك كثيرة، منها: أنها أهم مسألة اهتم بها القرآن، وفصل القول تفصيلا شاملا في بيان جوانب التوحيد الخمسة – إفراد الله بأسمائه وصفاته وأفعاله، وإفراده في العبادة، وإفراده في الحكم والتشريع، وإفراده في الملك، وإفراده الخلق- ومن الأدلة أيضا الاستدلال القرآني المقنع لإثبات التوحيد وكثرة صيغه وتنوع

[14] انظر: محمد عياش، **المحكم في العقيدة** (الدوحة: أعلام للفكر والثقافة، ط1، 2003م)، ص73-82.

أساليبه، ومن الأدلة أيضا أنه ناقش أصحاب الاعتقادات الأخرى، بما في ذلك النصرانية. وهذا يبين أن حديث القرآن عن النصرانية بالمنهج التاريخي الوصفي كان من أجل إيضاح الغاية الأولى للقرآن.

ب- وبهذا نعرف أن القرآن ليس كتاب قصص ولا تاريخ، بل هو عقيدة وشريعة ودستور، فتحدث عن النصرانية مراعيا هذا الجانب، فمن أجل هذا بين أهم معتقدهم، وفصل القول في محل الخلاف بينهم وبين المسلمين، ليعود ويقرر موقفه من هذه القضايا؛ ولم يلتفت كثيرا إلى ما وراء ذلك؛ فلم يتحدث عن حياة عيسى عامة - كما يفعل المؤرخ- من حيث الولادة والنمو، والسكن والعيش، وعدد أفراد الأسرة، وحالته المادية والاجتماعية، ولا مناسبات الفرح والحزن. فكل ما ذكر من قضايا النصرانية، لها غاية عملية ينتفع من ذكرها الإنسان في مهمته الكبيرة على هذه الأرض.

فالقرآن وصف وأرخ للكثير من قضايا النصرانية، بحسب ما يفيد الوظيفة القرآنية، ولم يخرج عن هذا، ونحن نستفيد من هذا العلم، وهو المطلوب.

أخيرا، هذا هو نوعية المنهج الوصفي والتاريخي الذي استخدمه القرآن في إعطائه البيانات اللازمة عن النصرانية، والقرآن في كل هذا يصرح ويبين أن ما قاله ليس كلام بشر، وإنما هو وحي وتنزيل رب العالمين، وفي الوقت نفسه يخبر القرآن أن هذه المعلومات حق وحقيقة؛ وإن كان لا بد من امتحان مقولات القرآن، ومعرفة مدى مصداقيته فإن القرآن نفسه رسم طرق معرفة ذلك، فمنها:

1. اختبار القرآن من منظور أنه من عند الله وليس من عند بشر، كما قال القرآن ذلك.

2. الإتيان بآية أو سورة من مثل القرآن، ومن سورة مثل سور القرآن.

3. عدم اختلاف الأنباء، وعدم وجود التضاد في القرآن.

وفي الجملة، فإن من منهج القرآن في الحديث عن الأديان، والذي تأثر به الرازي فأصبح جزءا من منهجه، هو المنهج التاريخي الوصفي، والذي يأتي في إطار السرد الوظيفي.

- **المنهج الجدلي والنقدي:**

قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦].

الجدل في اللغة: جدل جدلا اشتدت خصومته، وجادله مجادلة وجدالا ناقشه وخاصمه[15]، فالجدل في اللغة يدور حول المخاصمة والمناظرة والمناقشة، وغالبا بطريق المحاورة والأخذ والرد، كما يمكن أن يتخذ أشكالا أخرى.

أما في الاصطلاح فهو يستخدم غالبا في المناظرة والمعارضة، يقول النووي: "الجدل والجدال والمجادلة مقابلة الحجة بالحجة وتكون بحق وباطل، وأصله الخصومة الشديدة، ويُسمى جدلا لأن كل واحد منه يُحكم خصومته وحجته إحكامًا بليغًا على قدر طاقته"[16].

---

[15] ابن منظور، **لسان العرب**، ج11، ص105، مادة جدل.

[16] النووي، محي الدين زكريا بن شرف، **تهذيب الأسماء واللغات** (بيروت: دار الكتب العلمية، د ط، د ت)، ج3، ص48.

يمكن تعريف المنهج الجدلي والنقدي بأنه طريقة مقابلة الحجة بالحجة، من أجل الوصول إلى الحقيقة ونقض الباطل، كما يمكن تعريفه أيضًا -بناءًا على ما سبق وحسب الاستعمال القرآني له- بأنه عبارةٌ عن طريقةٍ في التفكير وفي البحث العلمي، تدرس العلاقات المتبادلة في التأثير بين الظواهر المختلفة، من أجل معرفة السقيم من الصحيح.

اعتمادًا على الآيتين السالفتين فإن القرآن أمر باستخدام المنهج الجدلي في فحص الدعوى لمعرفة مدى صحته من عدمه، والمنهج الجدلي طريقة للتذكير بما قد يغيب عن الذهن أحيانًا، وبه قد يرجع الفرد إلى الصواب، ويرى الرازي أن المجادلة ليست طريقة في الدعوة، بل لشيء آخر، وهو الإفحام وإلزام الخصم، فمتى افتقر للدليل عاد إلى قولك واعتقد دليلك، يقول: "أما الجدل فليس من باب الدعوة، بل المقصود منه غرض آخر مغاير للدعوة، وهو الإلزام والإفحام، فلهذا السبب لم يقل: {ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل الأحسن}، بل قطع الجدل عن باب الدعوة تنبيهًا على أنه لا يحصل الدعوة، وإنما الغرض منه شيء آخر"[17].

هذا، وإن العلماء قد اعتادوا أن يقسموا الجدل إلى نوعين: محمود ومذموم، فالمحمود ما وافق الأصول والغرض، والعكس بالعكس، يقول الرازي: "الدلائل التي يكون المقصود من ذكرها إلزام الخصوم وإفحامهم وذلك هو الجدل، ثم هذا الجدل على قسمين: القسم الأول أن يكون دليلاً مركبًا من مقدمات مسلمة في المشهور عند الجمهور، أو من مقدمات مسلمة عند ذلك القائل، وهذا الجدل هو الجدل الواقع على الوجه الأحسن. القسم الثاني أن يكون ذلك الدليل مركبًا من مقدمات باطلة فاسدة، إلا أن قائلها يحاول

---

[17] الرازي، محمد فخر الدين، **مفاتيح الغيب** (بيروت: دار الفكر، ط1، 1981م)، ج20، ص112.

ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة، وهذا القسم لا يليق بأهل الفضل إنما اللائق بهم هو القسم الأول، وذلك هو المراد بقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾"[18]، فمتى ما استخدمت الأدلة والحجج العقلية في مكانها المناسب يكون الجدل حسنًا ومقبولاً، ومتى ما كانت هذه العملية من أجل البحث عن الحق فيكون محمودًا، والعكس بالعكس: فمتى لم تستخدم الأدلة والحجج العقلية فإن الجدل باطل مذموم، ومتى ما استخدمت في مكانها فهو كذلك باطل مذموم، ومتى ما جرى الجدل بغير علم فهو مذموم مرفوض كذلك.

وبعد، فقد جادل القرآن النصارى في معتقداتهم وفي أدلتها، لينقد بذلك معتقدهم، ويردهم إلى ما يراه الصواب، فقد ذكر لسان حال القرآن نقدًا لعقيدة البنوة أن الإله الجدير بالعبادة هو القادر على كل شيء، والذي لا ينبغي أن يكون عاجزًا، أو أن يشبه أحد خلقه، فهو تعالى غير مفتقر لولد ولا صاحبة. وجادلهم في عقيدة ألوهية عيسى بأن عيسى الذي تعتقدونه إلهاً لا يملك الضر ولا النفع لنفسه، فكيف ينفعكم أو يدفع الضر عنكم، بل ما دليلكم على عبادته واتخاذه إلهاً؟ وهو لم يدع إلا إلى التوحيد الخالص!

- **المنهج الاستدلالي**

حسن استخدام المنهج الجدلي والنقدي يتطلب سلوك واتباع المنهج الاستدلالي، إذ إن حسن الجدل والنقد قائم على عرض الأدلة، ومن هنا نجد أن القرآن سلك المنهج الاستدلالي، والأسلوب المقنع الأخاذ، وذلك بجمعه بين منطق العقل ومنطق العاطفة، والجمع بين الجزالة والبساطة، بينما قد يمكننا القول: إن النصارى مفتقرون لمنهج الاستدلال في إثبات معظم قضاياهم

[18] المصدر السابق، ج20، ص111.

العقدية، كما عبر بذلك القرآن، هذا، ولقد تعددت طريقة القرآن في استخدامه المنهج الاستدلالي، ولنقف على أهم طريقة القرآن في استخدام المنهج الاستدلالي:

أولاً: الاستفهام الإنكاري:

كثيرا ما يخاطب القرآن النصارى أو أهل الكتاب، ويعقب باستفهام إنكارا عليهم، لنأخذ على سبيل المثال، إنكار القرآن عليهم في دعواهم أن إبراهيم منهم، وهم يعلمون أن رسولهم وكتابهم إنما أتيا بعد إبراهيم، فكيف يكون إبراهيم منهم، قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّورَاةُ وَالإنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران:65].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة:116]، قال الرازي: "الاستفهام على سبيل الإنكار"[19].

ثانيًا: الاستدلال باستحالة دعواهم عقلا:

كثيرا ما يناقش القرآن الكريم النصارى فيما يدعونه مناقشة عقلية، ليثبت لهم أن بعض ما يدعونه محال عقلا، من هذا القبيل نسبتهم الولد إلى الله، فيبين الله عز وجل امتناع ذلك عقلا كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ﴾ [البقرة:116]. يبين الرازي وجه الاستحالة الذي تحدث عنه القرآن فذكر أن وجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه: الأول أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن

---

[19] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج12، ص111.

لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولدًا.

ثالثًا: الاستدلال بلازم كلامهم:

وهو أن كثيرا من ادعاءات أهل الكتاب يلزم منها أمور لا يقرونها، وقد حاجهم الله بذلك، حيث كانوا يدّعون أنهم مسلمون، وأنهم متبعون لملة إبراهيم، فأخبر الله أن الحج من شعائر إبراهيم عليه السلام، وهم معرضون عنه كما قال تعالى، فهم إذن ليسوا على ملة إبراهيم، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللّهُ فَاتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (95) إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ (96) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (97)﴾ [آل عمران]. يقول الرازي: "فكأنه سبحانه قال: إن كان المعول في الدين على الاستدلال والنظر فقد قدمنا الدلائل، وإن كان المعول على التقليد فالرجوع إلى دين إبراهيم عليه السلام وترك اليهودية والنصرانية أولى"[20]. وهذا دليل عليهم بلازم كلامهم.

رابعًا: الاستدلال بإثبات تناقضهم:

إن أهل الكتاب نتيجة لتكذيبهم بمحمد ﷺ يقعون في الكثير من المتناقضات، والتي يشير إليها القرآن الكريم، مبينا أنه لا استقامة لمنهجهم إلا بالإيمان بالنبي محمد ﷺ كما بين تعالى. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيْنَ اللّهِ وَرُسُلِهِ وَيقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً﴾ [النساء:150]. ويقول الرازي في تفسير قوله تعالى: ﴿قُولُواْ آمَنَّا بِاللّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

---

[20] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج4، ص73.

وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136] يقول: "اعلم أنه تعالى لما أجاب بالجواب الجدلي أولاً ذكر بعده جوابًا برهانيًّا في هذه الآية، وهو أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد ﷺ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته؛ فإن تخصيص البعض بالقبول، وتخصيص البعض بالرد، يوجب المناقضة في الدليل، وأنه ممتنع عقلاً"[21].

خامسًا: الاستدلال بالقياس والتشابه:

يقصد بالقياس إثبات حكم شيء لآخر لاشتراكهما في العلة نفسها، يقول الباقلاني في التمهيد: "يجب الحكم والوصف للشيء في الشاهد لعلة ما، فيجب القضاء على أن من وصف بتلك الصفة في الغائب، فحكمه في أنه مستحق لها لتلك العلة حكم مستحقها في الشاهد؛ لأنه يستحيل قيام دليل على مستحق الوصف بتلك الصفة مع عدم ما يوجبها"[22].

أنواعه متعددة، استخدمها القرآن في محاجة أصحاب العقائد الأخرى، ونذكر من أنواع القياس ما يعرف بالأقيسة الإضمارية، ويعرفه زاهر عواض بقوله: "وهي التي تحذف فيها أحد المقدمات مع وجود ما ينبئ عن المحذوف[23]". ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59] فيفهم من

---

[21] الرازي، **مفاتيح الغيب**، ج4، ص75.

[22] الباقلاني، أبوركر محمد بن الطيب، **تمهيد الأوائل وتثبيت الدلائل**، تحقيق عماد الدين أحمد حيدر (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط1، 1987م)، ص32.

[23] الألمعي، زاهر عواض، **مناهج الجدل في القرآن الكريم** (الرياض: مطبعة الفرزدق، ط3، 1404هـ)، ص70.

هذا الكلام أنه إذا كان الخلق من غير أب مسوغًا لاتخاذ عيسى إلهاً أو ابنًا لله، فإن آدم أولى من عيسى؛ لأنه خلق من غير أب ولا أم، والنصارى لا يقولون بذلك، فاستدل عليهم القرآن بالقياس.

وأما التشابه فيمكن تعريفه بأنه الاستدلال بصحة الشيء على صحة مثله وما هو في معناه، وباستحالته على استحالة مثله وما كان بمعناه"[24]. وقد استخدمه القرآن في بيان مشابهة النصارى للمشركين عبدة الأوثان، مع علمهم بفساد طريقة المشركين، وقد ذكر الله مشابهتهم لهم في نسبة الولد لله تعالى، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة:30]، فمن أنواع الاستدلال في القرآن حين الحديث عن النصرانية الاستدلال بالقياس وبالتشابه.

سادسا: الاستدلال عليهم بصحة نبوة محمد ﷺ:

يستدل القرآن ببراهين نبوة محمد ﷺ على صحة نبوته، وفي الوقت نفسه يستدل بها على بطلان دعوى النصارى، ولهذا النوع من الاستدلال أوجه كثيرة، ونجد هذا واضحًا في الخطاب القرآني، إذ يبين في الكثير من المواضع أن محمدًا نبي من أنبياء الله، تثبت صحة دعواه في النبوة بالمعجزات، كما ثبتت بذلك صحة دعوة عيسى وموسى وغيرهما من الأنبياء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُم بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا﴾ [النساء:174].

الأسلوب القصصي وضرب الأمثلة

ومن أهم المناهج الذي سلكه القرآن في الحديث عن النصرانية، المنهج القصصي وضرب الأمثلة. ويقصد الباحث بالمنهج القصصي أو الأسلوب

---

[24] الباقلاني، **تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل**، ص 32.

القصصي إخبار القرآن عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة؛ فقد اتخذ القرآن القصص سبيلا للإقناع والتأثير[25]. نجد هذا جليا في مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:76]. فمن منهج القرآن في الحديث عن النصرانية إعطاء وبيانات مهمة عن طريق السرد القصصي.

هذا، وإن الأمثلة على ذلك كثيرة جدا، لا تحصى، سبق الكثير منها حين تحدث الباحث عن لب الموضوع في الفصول السابقة، فقد تحدث القرآن عن الكثير من قضايا النصرانية في سورة آل عمران، و قد أفرد سورة كاملة باسم سورة مريم، كما أن هناك سورة ارتبط بحادثة مهمة في النصرانية، وهي قصة المائدة، معظم المعلومات في هذه السور ترد بأسلوب قصصي.

هذا، وإن كان من تعقيب وزيادة على هذا الكلام، فهو أن القرآن يبين خصائص ومميزات القصص الواردة فيه، فهي ليست مثل قصص سائر الناس وحكاياهم، كما يقول القرآن نفسه، وإليك بعض هذه الخصائص:

1. أنها حقيقة، واسأل التاريخ أو من حضر الواقعة إن شككت في الأمر، قال تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:62].

2. أنها متضمنة للكثير من العبر، و لم يسق هكذا لمجرد التسلية، فمن عبرها تثبيت قلب النبي ﷺ، وبيان صدق دعوة محمد ﷺ بإتيانه بمثل هذه القصص والحقائق التاريخية، وهو لم يقرأ و لم يكتب، وهي حجة على أهل الكتاب، بشارة للمؤمنين، وإنذار للكفار، وغير هذه من العبر والفوائد كثيرة، يستنبط ما خطر على بالك منها من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ

---

[25] الألمعي، **مناهج الجدل في القرآن الكريم**، ص73.

لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَى وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف:111]

3. أنها من أخبار الغيب الموحى إلى محمد، وليس من صنع بشر، يؤكد القرآن على هذا عقب القصص التي يسوقها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلاَ قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود:49].

أما المقصود بضرب الأمثلة فيعرفه ابن قيم بقوله: "تشبيه شيء بشيء في حكمه وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الأخر واعتبار أحدهما بالآخر[26]"، فمن منهج القرآن عموما ضرب الأمثال، قال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾ [الرعد:17]، ويدخل في هذا ضربه الأمثال حين الحديث عن النصرانية. ومن الأمثلة على ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثِمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:59].

ولضرب الأمثلة فوائد وحكم لا تقل في الأهمية التربوية، وإفهام الناس وتقريب المعنى إلى عقولهم وقلوبهم، عن الأسلوب القصصي الذي يمتاز بجلب الانتباه، وتشويق السامع. بيَّن صاحب البرهان "أن ضرب الأمثال في القرآن يستفاد منه أمور كثيرة، منها: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، والتقرير، وترتيب المراد للعقل، وتصويره في صورة المحسوس، بحيث تكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس، والأمثال مقادير الأفعال، والمتمثل كالصانع

[26] ابن قيم الجوزية، أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر، **الأمثال في القرآن الكريم** ، تحقيق سعيد محمد نمر الخطيب (بيروت: دار المعرفة، د.ط، 1981م)، ص9.

الذي يقدر صناعته كالخياط يقدر الثوب على قامة المخيط، ثم يفريه ثم يقطع، وكل شيء به قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال"[27].

الموضوعية

إذا أرجعنا كلمة الموضوعية إلى أصلها اللغوي سندرك أنها من "وضع" أي الحط، إذ رد في مختار الصحاح: "و ض ع: المَوْضِعُ المكان والمصدر أيضًا، ووَضَعَ الشيء من يده يضعه وَضْعًا ومَوْضِعًا ومَوْضُوعًا أيضًا"[28]، وعلى هذا يمكن القول بأن حط الشيء في مكانه المناسب يسمى موضوعية، فلما أضع الكلام المناسب في مكانه المناسب فأنا موضوعي وإلا فلا. هذا من معانيه وله معان أخرى كثيرة بل ومتضادة. وهو مصطلح يستخدم كذلك فيما يسمى بالبحث العلمي، ويقصد به حصر أطراف الموضوع، هذا أولا. ومن الموضوعية ثانيا: التركيز على موضوع البحث. وثالثا: بيان الحقائق والنتائج التي يؤدي إليها البحث، سواء خالف وجهة نظر الباحث أو وافق[29].

فيمكن اعتبار كل ما سبق كجزئيات متممة لكلمة الموضوعية، إضافة لتعريف مجمع اللغة العربية، حيث تم تعريف الموضوعية بأنها وصف لما هو موضوعي، وهو بوجه خاص مسلك الذهن الذي يرى الأشياء على ما هي عليه، فلا يشوهها بنظرة ضيقة أو بتحيز خاص. ومن هنا وجب أن تكون الحقائق العلمية مستقلة عن قائليها، بعيدة عن التأثير بأهوائهم وميولهم ومصالحهم، فتتحقق في البحث العلمي الموضوعية والنَّزاهة[30]. وعلى هذا فلو

---

[27] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، **البرهان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم (بيروت: دار المعرفة، ط1، 1957م)، ج1، ص487.

[28] الرازي، محمد بن أبي بكر، **مختار الصحاح** (بيروت: مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الجديدة، 1995)، ص470.

[29] **مناهج البحث**، من منشورات جامعة المدينة العالمية، تحت رقم 1033، ص29.

[30] مجمع اللغة العربية، **المعجم الفلسفي**، ص197.

تحدث القرآن عن النصرانية بما هم أنفسهم يدينون به يمكن إطلاق وصف الموضوعية عليه، والعكس صحيح، ولو انتقد القرآن ما يدين به النصارى بناءًا على أدلة وحجج عقلية سليمة يمكن وصفه كذلك بالموضوعية من حيث البحث عن الحقيقة، والعكس صحيح.

يبين أنيس مالك طه أن مفهوم الموضوعية في الغرب يعني أن لا يتأثر الباحث بدينه أو فكرته وهو يتحدث عن دين آخر. ويعقب بأن هذا الأمر غير ممكن أو مرفوض، بينما الموضوعية في الفكر الإسلامي مرتبطة بالموضوع وإعطائه حقه، وهو كذلك منبثق من العدالة، والناس مأمورون بها في جميع نواحي حياتهم. وأكد أنيس مالك طه في مقالته عن الموضوعية أن الفاروقي يرى أن الحكم وإصدار الرأي ليس شيئا مرغوبا فيه فقط، بل أمر لا بد منه. ذكر هذا ليبين أنه لا مناصة من بيان الحكم في دراسة الأديان؛ خلافا لدعوى علماء الغرب في ذلك[31].

يرى محمد سعيد رمضان البوطي أن الإسلام هو الذي أمر بالموضوعية، فالدين هو العامل الأول لإخضاع الفكر الإسلامي لمنهج دقيق في البحث، نجد ذلك واضحا في مثل قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾ [الإسراء:36].

وهكذا وجد الفكر الإسلامي نفسه أمام مهمة دينية، هي ضرورة البحث عن الحقيقة، سواء أكانت من قبيل النقول أو الدعاوي، وبدهي أن القيام بهذه المهمة يتوقف على وضع منهج للبحث. ومعلوم أنه بقدر ما تكون الغاية صافية سليمة لا حكم فيها إلا للعقل وحده، يكون المنهج إليها صافيا سليما أيضا، لا يخطه إلا العقل وحده. فمنهج الإسلام ينحصر في "إن كنت

---

[31] انظر: Thoha, Anis Malik," Objectivity and the Scientific Study of Religion" in Journal of Intellectual Discourse, V.17, No1, 2009, pp.83-93.

ناقلا فالصحة، أو مدعيا فالدليل"[32].

فكيف يرسم القرآن المنهج الموضوعي للناس في طلب وكشف الحقيقة، ثم لا يلتزم هو به؟! لذلك نجد أن من منهج القرآن في الحديث عن النصرانية الموضوعية، فقد تعامل القرآن بالعدل والإنصاف مع النصارى في إطلاق الأحكام عليهم ووصفهم بالأوصاف اللائقة بهم. وإذا ما تأملنا في كيفية تعامل القرآن مع النصارى سنجد أنه على الرغم من قوله فيهم: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَآلُوآْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:17] وغيرها من النصوص التي تطلق حكم الكفر عليهم والضلال والشرك، إلا أن ذلك لم يمنع من أن ينصفهم الله تعالى ويعدل معهم ويذكر بعض صفاتهم الحسنة، وقد مر معنا مبحث كامل عن صفات النصارى في القرآن، وجلها صفات مدح، فالقرآن مع بيان موقفه الصارم والذي أتى ونزل عن معتقدات النصارى مع ذلك يقول القرآن في النصارى وقد حكم عليهم بما حكم، قال تعالى سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ (82) وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (83) وَمَا لَنَا لاَ نُؤْمِنُ بِاللّهِ وَمَا جَاءنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ (84) فَأَثَابَهُمُ اللّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاء الْمُحْسِنِينَ (85)﴾.

وكذلك نجد القرآن يفرق بين صالحهم وبين طالحهم، ولا يعمم في إعطاء

---

[32] بتصرف من: البوطي، محمد سعيد رمضان، **كبرى اليقينيات الكونية** (دمشق: دار الفكر، الطبعة الثامنة، 1997). ص33- 34.

الحكم، قال تعالى: ﴿لَيْسُواْ سَوَاء مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللّهِ آنَاء اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (113) يُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُوْلَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (114)﴾ [آل عمران]. وغيرها من الآيات التي تبيّن مدى موضوعية القرآن في تناوله لدين النصارى وعقائدهم وصفاتهم والعدل معهم، فهل هناك موضوعية أحسن من هذه؟ وهل هناك حيدة علمية أصدق من هذه؟

فيرى الباحث أنه لا مناص من ضرورة وصف المنهج القرآني بالموضوعية، ومن يرى العكس فما عليه إلا الدليل.

آثار المنهج القرآني في الحديث عن النصرانية

رسم القرآن منهجا واضحا حين تحدث عن الأديان الأخرى عموما، وعن النصرانية خصوصا، فجاء المنهج القرآني لغاية واضحة مكشوفة، وهو أن يكون الدين كله لله، فكان التوحيد والسير تحت ظلاله الوظيفة الأساسية للقرآن، يدلنا على هذا الآيات التالية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]. وقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرُّسُلِ أَن تَقُولُواْ مَا جَاءنَا مِن بَشِيرٍ وَلاَ نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة:19]. وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَآمِنُواْ خَيْرًا لَّكُمْ وَإِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:170]. فالقرآن كلام الله، جاء ليبن الحق من الباطل، يبين الحق بإثبات التوحيد، فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومن ثم السير على هديه، ويبين الباطل بنقض الشرك وتوابعه، هذه هي وظيفة القرآن، وكان منهجه في ذلك الوصف البيان من جانب، والاستدلال من جانب، والأسلوب القصصي من

ناحية، والمجادلة أحيانا، متبعا في كل خطوة من هذه الخطوات الموضوعية وقول الحق.

وإن مقدار نجاح القرآن أو فشله لا بد أن يقاس بمدى ما حققه من الأهداف المرسومة له مسبقا، فإن أتت آثار منهج القرآن بما يشبع الغاية التي من أجلها تحدث القرآن عن النصرانية فقد نجح، وإن لم تأت آثار المنهج القرآني في الحديث عن النصرانية بما يشفي الغليل المرتقب فلم يفلح في ذلك. ويمكن عد آثار المنهج القرآني في حديثه عن النصرانية كالتالي:

1. **بناء تصور تام عن التوحيد**، ودراسته دراسة تفصيلية من كل جوانبه، مؤكدا أنه الدين الوحيد الذي يقبله العقل، والذي لم يأت نبي إلا به؛ فأكد أنه دعوى جميع الأنبياء، وإن الإنسان في ضنكا من حياته، إن تصور أن هذا العالم وجد جزافا وعبثا، أو اعتقد بوجود آلهة أخرى إضافة إلى الخالق الأول للكون، من شمس وقمر أو حتى من الناس أنفسهم أو الملائكة.

2. **إعطاء تصور تام عن النصرانية:** يرى الكثير من الباحثين مسلمهم والنصارى منهم، بل وأصحاب الديانات الأخرى، أن القرآن لم يتحدث عن النصرانية، وجل ما فيه هو أنه يعيد نظرية الإسلام نفسه، أدرك الباحث هذا مثلا من خلال بعض الحوارات التي جرت بين الباحث وبين من تحدث معهم عن بحثه هذا، لكن من خلال ما سبق تبين أن هذا الرأي لا يكاد يكون صائبا، فقد وقفنا على أهم القضايا النصرانية وأهم معتقدهم من خلال تتبع آيات القرآن الكريم.

3. **إعطاء معلومات كافية لم ترد في الإنجيل نفسه**، وفي هذا قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة:15]،

وقال: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [النمل:76]. ومن هذا القبيل على سبيل المثال ما يرُد الشك بنبوة محمد ﷺ، ومنه أيضا الكثير من معجزات عيسى، مثل الكلام في المهد، ومعجزة الخلق من الطين، وكذلك الإخبار بالغيوب، وكذلك الإخبار بقول من كان يؤمن بألوهية مريم عليها السلام، والقرآن في هذا يبقى مصرًّا على أنه من عند الله، لا من عند بشر.

4. **بيان موقفه من القضايا النصرانية**: وإن القرآن لم يكتف بإعلامنا وإعطائنا التصور الكافي لفهم النصرانية كما يدينون بها، بل أعقب ذلك ببيان رأيه – وهو كما يراه القرآن رأي الحق، إذ هو حكم العقل والمنطق، وليس مجرد التأثر بالآباء- وببيان موقفه من القضايا النصرانية، فقال في مقام البنوة: لا ينبغي للخلق أن يتخذ ولدا، وأعلن في مقام التثليث أن الإله الحق واحد، لا ينبغي أن يكون ثلاثة وإلا لفسدت الأرض، ولأدى الإيمان بذلك إلى الدور المستحيل، وإلى العجز في حق الخالق، وأعلن على الملأ أن من آمن بهذه الأمور فهو كافر، أي لم يصدق ما جاء به محمد، وبالتالي لا يترتب عليه ما يترتب من الأجر لمن آمن به، بل ولقد بين القرآن في مجال الأحداث التاريخية ما يراه حقا ورد على ما ليس بعلم أو كما أسماه القرآن بالظنون، ومن هذا الإيمان يصلب المسيح، فأنكر بناءًا على علم الله أنه لم يصلب. فكان من آثار المنهج القرآني إصدار الحكم، فلا ينبغي أن يعد عيبا في البحث العلمي، خاصة إذا ما أدركنا أن إصدار الحكم مهم، وشيء مطلوب عقلا.

5. **تأثر علماء المسلمين بالمنهج القرآني**: وآخر أثر من آثار المنهج القرآن في الحديث عن النصرانية هو أن معظم من تحدث عن الأديان الأخرى في الإسلام تأثروا بالمنهج القرآني، إذ كان القرآن منطلقهم، فما خلي

منهجهم بعد دراسة دين ما من أديان العالم من الموضوعية، والاستدلال العقلي، ومحاورة من آمن بفكرة ما، سواء كان ذلك على سبيل الصراحة والمباشرة أو التلويح والتعريض، ومن ثم لا بد من إصدار الحكم في حق أصحاب ذاك الدين، وكل خطوة من خطوات عملهم يمكن أن يعتبره الباحث بأنه تأثر مباشر أو غير مباشر من القرآن، ويمكن للقارئ فحص كتب علماء المسلمين ليرى مدى صحة مقولة الباحث من عدمه. ولا ينبغي أن يعد هذا عيبا في البحث العلمي، بل على العكس يجب بيان فضائله. ولعل من أجل هذا اتخذ معظم المسلمين من دراسة الأديان طريقا للدعوة؛ فكأن لسان الحال يقول دلني على دليل صحة دينك لأتبعك، فإن عجزت فأنا ديني قائم على كيت وكيت! بل كيف أنت تؤمن بكذا وكذا، والعقل يرى هذا وذاك، فإذا بان الأمر لم يبق لك إلا الدخول في الإسلام للنجاح، أو الإصرار على دينك!

وبعد، فلعل هذا أهم آثار المنهج القرآني في الحديث عن النصرانية، ذكرها الباحث من باب التحليل والاستنباط، وبما أنه كذلك فهو صالح للزيادة، كما يصلح للنقصان.

الخاتمة

الحمد لله أولا وآخر والصلاة والسلام على آخر رسل الله، وبعد؛ فقد كان هذا جولة في تتبع منهج الخطاب القرآني في الحديث عن النصرانية، والآثار التي تركها الخطاب القرآني نتيجة سلوكه لذاك المنهج. ويرجو الباحثان أن يكونا قد وفقا في بيان المقصود بالمنهج لغة واصطلاحا، وفي سرد واستقصاء المنهج القرآني، وما ترتب عليه.

فما كان في هذا البحث من صواب فمن الله وما كان فيه من خطأ وزلل وسهل فمن تقصيرنا، نسأل الله التجاوز والقبول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.